تمييز ذوي الفطن

بين شرف الجهاد وسرف الفتن

تأليف

عبد المالك بن أحمد رمضاني

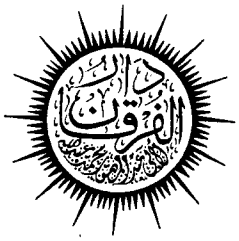

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَة

الطَّبعَةُ الأُولَى

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر، ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة خطية من الناشر

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

رمضاني، عبد المالك أحمد

تمييز ذوي الفطن بين شرف الجهاد وسرف الفتن - عبد المالك أحمد رمضاني. - المدينة المنورة، ١٤٢٩هـ

١٧٦ ص؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٨ - ٠٤٠٥ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الجهاد - دفع مطاعن أ- العنوان

ديوي ٢٥٦ ١٤٢٩/٢٢٨٥

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢١٤٩٠/ ٢٠٠٨م

دار الفرقان للنشر والتوزيع

لأبي عبد المصور محمد عبد الله

القاهرة - مساكن عين شمس - ش مسجد الهدي المحمدي

هاتف وفاكس: ٢٢٩٥٣٢٩٧ /٠٠٢٠٢

محمول: ٠١٠١٦٣٥٠٣٦ - ٠١٠٥٦١٨١٧٩

البريد الإلكتروني: Abdel_m2005@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَة

الحَمدُ لله ربِّ العَالمينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ وبارَكَ على عبدِه ورَسولِه محمَّدٍ وعلى آلِه وصَحبِه أَجمعِين.

أمَّا بَعدُ، فهَذا تَأليفٌ مُختصرٌ عن الفِتَن وما يتَّصلُ بها وما بَينَها وبينَ الجِهادِ الشَّرعيِّ من فُروقٍ، جَعلتُه طَليعةَ بَحثٍ مُطوَّلٍ أَسألُ اللهَ تَعالى عَونَه على إتمامِه وتَوفيقَه لي لإِصابةِ الصَّوابِ فيهِ في القَولِ والعمَل.

وقد عجَّلتُ بهِ هنا لَمَّا عَظُمَت الفِتنُ في هَذا الزَّمن، وكَثرَت مَصائبُ المُسلمِين فيهِ واشتدَّت المِحَن، بَدءاً بالخلاَفاتِ الَّتي بَينَهم أَفراداً وجَماعاتٍ ودُوَلاً، وانتِهاءً باستِباحةِ عدوِّهم دِيارَهم وأَموالَهم وذرِّيَّاتِهم، وبسبَبِ سُهولةِ الاتِّصالِ فقَد أَضحَت كلُّ فِتنةٍ تُولدُ في أَقصَى الأَرض أَقربَ إلَى المُسلمِ من شِراكِ نَعلِه، فتمرُّ بهِ ويَمرُّ بها وهوَ لاَ يَدرِي أهَذا وَقتُ إِقدامٍ أم هوَ وَقتُ إِحجامٍ؟ وأَصبحَ لاَ يُفرِّق بينَ النَّاصحِ له فيها والخَائن، وانفرَطَ عِقدُ الإِفتاءِ حتَّى خرَجَ من أَيدِي أَهلِه الحذَّاقِ، وتَحمَّلَ بهِ مَن لاَ يُؤبَه له مِن الجهَّالِ والفسَّاقِ، الَّذينَ كَثيراً ما يَجتمعُ فيهم شُبهةٌ وشَهوةٌ، ومع ذلكَ يُوغِلونَ في وَقائعَ عَصيبةٍ ونَوازل مُريبةٍ بفَوضَى من الفَتاوَى الجَريئةِ.

وفي كلِّ يَومٍ يُراقُ دمٌ مُسلمٌ ويَبقَى المُسلمونَ في ارتِباكٍ مِن أَمرِهم، مِنهم مَن يُفتِي بالجِهادِ في كلِّ شيءٍ، ومِنهم مَن همُّه إِرضاءُ الدُّوَل

المُتحضِّرةِ بكلِّ شيءٍ، حتَّى يُنكرَ مِن أَجلِهم المَعلومَ من الدِّينِ بالضَّرورةِ!

والغَريبُ أنَّ السُّذَّج من هَذهِ الأمَّة يُوجَّهونَ حَيثُ شاءَ المُوَجِّهون العالَميُّون: فبَينما هم مُهتمُّون بفِلَسطين ـ ردَّها اللهُ وأَهلَكَ اليَهودَ وأَذنابَهم ـ إذِ اختَلَقَ الأَعداءُ مُشكلةً في أَفغانِستان بعدَ إِجلاَء الرُّوس الكَفرةِ المُستعمِرين، فصُرفَ المُسلِمون عن فِلَسطين ووُجِّهوا إلى هَذه، ثمَّ قَبلَ أن يَنتَهوا منها وُجِّهوا إلى البُوسنَة والهِرسِك، ثمَّ قبلَ أن يَنتَهوا منها وُجِّهوا إلى الشِّيشان، ثمَّ قَبلَ أن يَنتَهوا منها وُجِّهوا إلى العِراقِ، ثمَّ قَبلَ أن يَنتَهوا منها وُجِّهوا إلى لُبنان، ثمَّ قَبلَ أن يَنتَهوا مِن هَذهِ رُدُّوا إلى العِراقِ!! وهَكذا في حلَقاتٍ من الفتَن لاَ يَخرجُ المُسلِمون مِن واحدةٍ منها حتَّى يُدخَلوا في أُخرَى، فيَتكلَّم المُسلِمون فيها طَويلاً بلاَ جَدوَى سوَى الخُروج منها مُختلِفي الآراءِ، مُتنافِري القُلوبِ والأَهواءِ، يَكثرُ فيهم العَزاءُ، ولاَ يَنقصُ الأَعداءُ...

وأمَّا دَاخليًّا، فقَد تَداخلَت اليَومَ مَفاهيمُ جِهاديَّةٌ شَريفةٌ بمَفاهيمَ خارجيَّةٍ مُسرفةٍ، تلكَ المَفاهيمُ الَّتي أَفرَزَتها الصِّراعاتُ على السُّلطةِ والثَّوراتُ المتوهِّجةُ الَّتي لاَ تَنضبطُ بالشَّرع، وإنَّما يَغلبُ علَيها تَحكيمُ العَواطفِ المُثخنةِ بجِراحاتِ الهوَى وعصبيَّةِ الغضَب الهائِج في الوَقائع المستجدَّةِ، وتَحكيمُ فَهمِ المُراهِقِ في نُصوصٍ شرعيَّةٍ قد تَكونُ صَحيحةً من حيثُ الثُّبوتُ، ولكنَّ قُصورَه العِلميَّ والعَقليَّ هو السَّائقُ له إلى فِكرٍ مُنحرفٍ مُوبقٍ، والباعثُ له على تَنزيلِها تَنزيلَ حَروريٍّ مارقٍ!

فكَم من بلدٍ مُسلمٍ أُريقَت فيهِ دِماءُ أَهلِه من أَجْل الوُصولِ إلى السُّلطةِ!

فمَن أُقصيَ من الحُكم بحقٍّ أو بغَيرِ حقٍّ جعلَ ذلكَ مُسوِّغاً شَرعيًّا له

لإراقةِ الدِّماءِ!

ومَن لم يُعتمَد حِزبُه في البَرلَمان أَراقَ الدِّماءَ!

ومَن شكَّ في نَزاهةِ الانتِخاباتِ أَراقَ الدِّماءَ!

ومَن رأَى من أَميرِه تَقصيراً في الأَخذِ بحُكم الله أَراقَ الدِّماءَ!

ومَن لم يَجِد وَظيفةً أَراقَ الدِّماءَ!

ومَن لم يُشارِك سُلطانَه في دُنياه أَراقَ الدِّماءَ!

ومَن لم يُوافِق على رَمي فلانٍ بالكُفر أَراقَ الدِّماءَ!

ومَن طلَبَ لنَفسِه البَيعةَ فلم يُستجَبْ له أَراقَ الدِّماءَ!

ومَن سأَلَ مالاً لجَماعتِه الثَّائرةِ فلم يُعطَ أَراقَ الدِّماءَ!

ومَن لم يُستجَب له في مُقاطعةِ بلدٍ ما أَراقَ الدِّماء!

ومَن لم يُقتنَع بقَولِه في إِيجابِ القِتالِ في بلَدٍ مَا كفَّرَ وأَراقَ الدِّماءَ!

ومَن لم يُستجَب له في طَلَبِه إِخراجَ المُشركِين من بلدٍ ما كفَّرَ وأَراقَ الدِّماءَ!

والخلاَصةُ أَنَّنا في زَمانِ هَرجٍ وفتنٍ، استُسهِلَ فيهِ الخلاَفُ الشَّديدُ بينَ أَهل المِلَّة الواحدةِ، ورقَّ الدِّينُ في قُلوبِ أَهلِه إلاَّ مَا شاءَ اللهُ، ومُورِسَت الفِتنةُ باسم الجِهادِ، تلكَ الكَلمةُ العَظيمةُ الَّتي اتَّخذَها كَثيرٌ من الخُطباءِ زِينةَ خُطبِهم للوُصولِ بها إلى أَعناقِ الجَماهيرِ وعَطفِ قُلوبِهم إِلَيهم، وهانَت الدِّماءُ على أَهلِها، ورَخصَت أَرواحُ المُسلِمين حتَّى على بَني جِلدتِهم، روَى البُخاري (٧٠٦٢) عن شَقِيقٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَبْدِ الله وأَبِي مُوسَى فَقَالاَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ لَأَيَّاماً يَنْزِلُ فِيهَا الجَهْلُ، ويُرْفَعُ فِيهَا العِلْمُ، ويَكْثُرُ فِيهَا الهَرْجُ، والهَرْجُ القَتْلُ**»، واللهُ المُستعانُ.

الجِهادُ في سَبيل الله

تَعريفُ الجِهَادِ:

قالَ الحَافظُ ابنُ حجَر في «الفتح» (٦/ ٣): «أَصلُه لغةً: المَشقَّة، يُقالُ: جَهِدتُ جِهاداً، بلَغتُ المَشقَّة».

ثمَّ قالَ رحمه الله: «وشَرْعاً: بَذْل الجَهْد في قِتَال الكُفَّار، ويُطْلَق أَيْضاً عَلَى مُجَاهَدَة النَّفْس والشَّيْطَان والفُسَّاق.

فَأَمَّا مُجَاهَدَةُ النَّفْس فَعَلَى تَعَلُّم أُمُور الدِّين، ثُمَّ عَلَى العَمَل بِهَا، ثُمَّ عَلَى تَعْلِيمهَا[(١)].

وأَمَّا مُجَاهَدَةُ الشَّيْطَان فَعَلَى دَفْع مَا يَأْتِي بِهِ مِن الشُّبُهَات ومَا يُزَيِّنهُ مِن الشَّهَوَات[(٢)].

---

(١) يدلُّ على جِهادِ النَّفْس حَديثُ فَضَالَةَ بن عُبَيْدٍ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ» رواه التِّرمذي (١٦٢١) وصحَّحَه الألباني في تَعليقِه علَيه، ويدلُّ على القِسمةِ الَّتي ذكَرَها سُورةُ العَصْر.

(٢) يدلُّ علَيه إِخبارُ الله عِبادَه بأنَّ الشَّيطانَ عدوٌّ لهم، والعدوُّ يُجاهَدُ، قالَ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ (البقرة:١٦٨-١٦٩)، فجمعَت هاتانِ الآيتانِ أَمرَين:

أَحدهما: الإِخبارُ بعَداوةِ الشَّيطانِ لبَني آدَم حتَّى لاَ يُلقُوا سلاَحَهم معَه إلى أن يَلقَوا ربَّهم.

والثَّاني: بَيانُ الطُّرقِ الَّتي يَسلكُها لمُهاجمتِهم، وذكَرَ في هَذا ثلاثَةَ أَشياءِ:

الأَوَّلُ والثَّاني همَا أَنَّه يَأمرُهم بالسُّوءِ والفَحشاءِ، والثَّالثُ أَنَّه يَأمرُهم بأن يَقولُوا على الله مَا لاَ يَعلَمون، فالسُّوءُ والفَحشاءُ يَجمعُهما كلِمةُ (الشَّهَوات)، والقَولُ على الله بغَيرِ علمٍ

وأَمَّا مُجَاهَدَةُ الكُفَّار فتَقَع بِاليَدِ والمَال واللِّسَان والقَلْب[1].

هوَ الابتِداعُ في الدِّين وهو الشُّبهاتُ، وهما الدَّاءَان اللَّذانِ ذكَرَهما ابنُ القيِّم أعلاَه، ولعلَّ اقترانَ السُّوءِ بالفَحشاءِ كاقترانِ المُنكَر بالفَحشاءِ، وهو من بابِ أنَّ الأوَّلَ تُنكرُه النُّفوسُ وليسَ لها مَيلٌ إلَيه كالقَتل والظُّلم والتَّباغض، والثَّاني تَشتهيهِ وتَميلُ إلَيه كالزِّنا وشُربِ الخَمر، قالَ ابن تَيمية كما في «مجموع الفتاوَى» (١٥/ ٣٤٨): «وإذَا قُرِنَ المُنكَرُ بالفَحْشَاءِ فَإنَّ الفَحْشَاءَ مَبْنَاهَا علَى المحَبَّةِ والشَّهْوَةِ، والمُنكَرُ هُوَ الَّذِي تُنكِرُهُ القُلُوبُ، فَقَدْ يُظَنُّ أَنَّ مَا فِي الفَاحِشَةِ مِن المحَبَّةِ يُخْرِجُهَا عَن الدُّخُولِ فِي المُنكَرِ وإن كَانَتْ مِمَّا تُنكِرُهَا القُلُوبُ، فَإنَّهَا تَشْتَهِيهَا النُّفُوسُ»، ولذَلكَ كانَ السُّوءُ لاَ يقَعُ عادةً إلاَّ عندَ غلبَةِ الدَّافع الخارِجيِّ، بخلاَفِ الفَحشاءِ، قالَ ابن تَيمية في المَوضِعِ السَّابقِ: «ومَنشؤُه ـ أي المُنكَر ـ مِن قوَّةِ الغضَب، كما أنَّ الفَحشاءَ مَنشؤُها من قوَّةِ الشَّهوةِ».

(١) يدلُّ على الثَّلاثَةِ الأُولى حَديثُ أَنَسٍ عَن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**جَاهِدُوا المُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**» رواه أبو داود (٢٥٠٤) والنسائي (٣٠٩٦) وصحَّحَه الألبانيُّ في تَعليقِه علَيهما.

وأَمَّا الرَّابعةُ الَّتي هيَ جِهادُهم بالقَلب، فمَن تعذَّرَ علَيه المُشاركةُ في القِتالِ ـ كأن يَكونَ مَريضاً أو غيرَ واجدٍ مَا يُجاهدُ به أو كانَ الجِهادُ غيرَ مَشروعٍ لضَعفِ المُسلمِين مثلاً ـ فعلَيه أن يُصحِّحَ نيَّتَه في ذَلك بحيثُ لو زالَ عُذرُه لم يُقصِّرْ في الاستِجابةِ لمُنادِي الجِهادِ؛ لقَولِ رَسولِ الله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ**» رَواه مُسلم (١٩١٠)، انظُرْ «مجموع فتاوَى ابن تَيمية» (٧/ ١٦ و٥٥٦) و«سبل السلاَم» للصَّنعاني (١/ ١٩٩)، ومَن صحَّحَ نيَّتَه كانَ أَجرُه كأَجْر المُجاهدِ؛ فقد روَى البُخاري في «صحيحه» (٤٤٢٣) عن أَنس رضي الله عنه: «أنَّ رَسولَ الله ﷺ رَجعَ مِن غَزوةِ تَبوك فَدَنَا مِن المدينةِ، فقالَ: **إنَّ بالمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَا سِرْتُم مَسِيراً ولاَ قَطَعْتُمْ وَادِياً إلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ**، قالوا: يَا رَسولَ الله! وهُم بالمَدينةِ؟ قالَ: وهُمْ بالمَدينةِ؛ حَبَسَهُم العُذْرُ»، ورواه مُسلم في «صَحيحه» (١٩١١) عن جابر رضي الله عنه، وفي بَعض طُرُقِه زِيادَة: «**إلاَّ شَرَكُوكُم في الأَجْر**».

ويَكونُ جِهادُهم بالقَلبِ أيضاً ببُغضِهم في الله واتِّخاذِهم أَعداءً والبَراءةِ مِنهم ومِمَّا يَعبُدونَ مِن دونِ الله؛ لقَولِ الله تَعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ**

وأَمَّا مُجَاهَدَة الفُسَّاق فَبِاليَدِ ثُمَّ اللِّسَان ثُمَّ القَلْب[1]، وقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيث سَبْرَة ـ بِفَتْحِ المُهْمَلَة وسُكُون المُوَحَّدَة، ابن الفَاكِه بِالفَاءِ وكَسْر الكَاف بَعْدهَا هَاءٌ ـ فِي أَثْنَاء حَدِيثٍ طَوِيلٍ قَالَ: فَيَقُول ـ أَيْ الشَّيْطَان ـ يُخَاطِب الإِنْسَانَ: تُجَاهِد فَهُوَ جَهْد النَّفْس والمَال؟!»، وهَذا الحَديثُ صحَّحه الأَلبانيُّ في تَحقيقِه «سُنن النَّسائي» (٣١٣٤).

وقالَ الكَاساني في «بدائع الصَّنائع» (٧/ ٩٨): «الجِهَادُ في عُرفِ الشَّرع يُستعمَل في بَذْل الوُسع والطَّاقةِ بالقِتالِ في سَبيل الله ﷻ بالنَّفْس والمالِ واللِّسانِ أو غَير ذلكَ أو المُبالغَة في ذلكَ»، وانظُرْ «حاشية إعانة الطَّالبين» لأبي بَكر الدِّمياطي(٤/ ١٨٠).

﴿قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ (الممتحنة:٤)، فهَذه هيَ المِلَّةُ الإبراهيميَّةُ الَّتي أَمرَنا اللهُ بالتَّأَسِّي بها، فما لقَومٍ يَزعُمونَ أَنَّه لاَ دَليلَ على بُغض الكفَّارِ مِن أَجْل كُفرِهم؟! ويَزعُمونَ أنَّ الدِّينَ الإبرَاهيميَّ هو الجامِعُ لكلِّ الأَدْيان: المُحرَّفِ منها والمُنزَّلِ من الرَّحمَن، كلُّ ذَلكَ باسم سَماحةِ الأَديانِ، وأنتَ ترَى الرَّجلَ يُبغِضُ الرَّجلَ من أَجْل أَنَّه عدوٌّ لحَبيبِه، ولو لم يَفعَل لعُدَّت محبَّتُه له كاذبةً، فكيفَ يُستنكَرُ على المُسلم مُعاداةُ مَن يُعادِي الرَّبَّ العَظيمَ سُبحانَه أو النَّبيَّ الكَريمَ ﷺ؟! فكيفَ يدَّعِي محبَّةَ الله مَن لاَ يُعادِي عدوَّ الله ورَسولِه؟!

(١) قالَ ابن المُناصِف في «الإنجاد في أبواب الجهاد» (١/ ١١): «والدَّليلُ على هَذه القَسمةِ وتَسميةِ كلِّ واحدٍ منها جِهاداً ما خرَّجه مُسلمٌ (٥٠) عن عَبدِ الله بنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ ويَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ، ويَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، ومَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، ومَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، ولَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ».

فَضْل الجِهادِ:

تكلَّمَ ابنُ القيِّم في «طريق الهِجرتَين» (ص٣٥٥- دار الكتب العلميَّة) عن المُجاهِدينَ في سَبيل الله ومَا لهم من فَضْلٍ، فقالَ: «وهُم جُندُ الله الَّذينَ يُقيمُ بهم دِينَه، ويَدفعُ بهم بَأسَ أَعدائِه ويَحفظُ بهم بَيضةَ الإِسلاَم ويَحمِي لهم حَوزةَ الدِّين، وهُم الَّذينَ يُقاتِلون أَعداءَ الله ليَكونَ الدِّينُ كلُّه لله وتَكونَ كَلمةُ الله هيَ العُليَا، قد بذَلوا أَنفسَهم في مَحبَّةِ الله ونَصرِ دينِه وإعلاَءِ كَلمتِه ودَفْع أَعدائِه، وهُم شُركاءُ لكلِّ مَن يَحمونَه بسُيوفِهم في أَعمالِهم الَّتي يَعملونَها وإن باتُوا في دِيارِهم، ولهم مِثلُ أُجورِ مَن عبَدَ اللهَ بسَببِ جِهادِهم وفُتوحِهم؛ فإنَّهم كانُوا هُم السَّببَ فيهِ، والشَّارعُ قد نزَّلَ المُتسبِّبَ مَنزلةَ الفاعلِ التَّامِّ في الأَجْر والوِزرِ، ولهَذا كانَ الدَّاعي إلى الهُدَى والدَّاعي إلى الضَّلاَل لكلٍّ مِنهُما بتَسبُّبه مِثلُ أَجر مَن تبعَه، وقد تَظاهرَت آياتُ الكِتابِ وتَواترَت نُصوصُ السُّنَّة على التَّرغيبِ في الجِهادِ والحضِّ علَيه ومَدْح أَهلِه والإِخبار عمَّا لهم عندَ ربِّهم مِن أَنواع الكَراماتِ والعَطايَا الجَزيلاَت، ويَكفي في ذلكَ قَولُه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ (الصف:١٠)، فتَشوَّقَت النُّفوسُ إلى هذِه التِّجارةِ الرَّابحةِ الدَّالِّ علَيها ربُّ العالمِين العَليمُ الحَكيمُ، فقالَ: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ (الصف:١١)، فكأنَّ النُّفوسَ ضنَّت بحَياتِها وبَقائِها، فقالَ: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (الصف:١١)، يَعني أنَّ الجِهادَ خَيرٌ لَكم مِن قُعودِكم للحَياةِ والسَّلامةِ، فكأنَّها قالَت: فما لَنا في الجِهادِ مِن الحظِّ؟ فقالَ:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (الصف:١٢)، مع المَغفرةِ: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الصف:١٢)، فكأنَّها قالَت: هَذا في الآخرةِ فما لَنا في الدُّنيا؟ فقالَ: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ (الصف:١٣)، فيَا لله مَا أَحلَى هَذه الألفاظَ! ومَا أَلصقَها بالقُلوب! ومَا أَعظمَها جَذباً لها وتَسييراً إلى ربِّها! ومَا أَلطفَ مَوقعَها مِن قَلبِ كلِّ مُحبٍّ! ومَا أَعظمَ غنَى القلبِ وأَطيبَ عيشَه حين تُباشرُه مَعانِيها! فنَسألُ اللهَ مِن فَضلِه؛ إنَّه جَوادٌ كَريمٌ.

ومِن هَذا قَولُه تَعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التوبة:١٩-٢٢)، فأَخبرَ سُبحانَه وتَعالى أنَّه لاَ يَستَوِي عِندَه عمَّارُ المَسجدِ الحَرام، وهُم عمَّارُه بالاعتِكافِ والطَّوافِ والصَّلاةِ، هذِه هيَ عِمارةُ مَساجدِه المَذكورةِ في القُرآنِ، وأَهل سِقايةِ الحاجِّ، لاَ يَستَوونَ هُم وأَهل الجِهادِ في سَبيل الله، وأَخبرَ أنَّ المُؤمنينَ المُجاهِدين أَعظمُ درَجةً عِندَه، وأنَّهم هُم الفَائِزونَ، وأنَّهم أَهْل البِشارةِ بالرَّحمةِ والرِّضوانِ والجِنانِ، فنفَى التَّسويةَ بين المُجاهِدين وعمَّار المَسجدِ الحَرام معَ أَنواع العِبادةِ، معَ ثَنائِه على عُمَّاره بقَولِه تَعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن

﴿يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ (التوبة:١٨)، فهَؤلاءِ هُم عُمَّارُ المَساجِدِ، ومعَ هَذا فأَهلُ الجِهادِ أَرفعُ درَجةً عندَ الله مِنهم، وقالَ تَعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:٩٥-٩٦)، فنفَى سُبحانَه وتَعالى التَّسويةَ بينَ المُؤمِنينَ القَاعِدِين عن الجهادِ وبينَ المُجاهِدِين، ثمَّ أَخبرَ عن تَفضِيل المُجاهِدِين على القاعِدِين دَرجةً، ثمَّ أَخبرَ عن تَفضيلِهم علَيهم دَرجاتٍ».

وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة:١١١)، ولابن النَّحَّاس رحمه الله كلامٌ ماتعٌ على هَذه الآيةِ في «مشارع الأشواق إلى مصارع العُشَّاق» (٢/ ٨٤٢) قالَ فيهِ: «نَفاسةُ السِّلعةِ تُعرَف بثلاثةِ أَشياءِ:

- بعِظَم المُشتري؛ لأنَّ العَظيمَ القَدْر لاَ يُباشرُ في العادةِ مُشترَى الأَشياءِ الخَسيسةِ بنَفسِه، ولاَ يُنسَب إلَيه شِراؤُها.

- وتُعرَف بجلالَةِ الدَّلاَّل؛ لأنَّ الدَّلاَّلَ الكَبيرَ لاَ يُسَمسِر على الأَشياءِ الحَقيرةِ.

- وتُعرَف بعِظَم الثَّمن؛ لأنَّ الشَّيءَ الحَقيرَ لاَ يُدفعُ فيهِ الثَّمنُ الخَطيرُ.

فانظُرْ إلى نُفوسِ الشُّهداءِ والمُجاهِدين كيفَ اشتَراها سُبحانَه بنَفسِه الشَّريفةِ، وجعَلَ السِّمسارَ عليها أَشرفَ خَلقِه أَجمعِين، وجعَلَ ثمنَها الجنَّةَ في جِوارِ ربِّ العالمِينَ، وناهِيكَ بهَذا شرفاً لم يَنَله غيرُهم، وفضلاً لم يَصِل إلَيه سِواهم».

ولابن القيِّم كلاَمٌ قَريبٌ مِنه في «رسالة ابن القيِّم إلى أَحدِ إخوانِه» (ص٣٢) قالَ في آخرِه: «فسِلعةٌ ربُّ السَّمَواتِ والأَرض مُشتريها، والتَّمتُّعُ بالنَّظرِ إلى وَجهِه الكَريم وسَماع كلاَمِه منه في دارِه ثَمنُها، ومَن جرَى على يدِه العَقدُ رَسولُه، كيفَ يَليقُ بالعاقِل أن يُضيِّعَها ويُهملَها ويَبيعَها بثَمنٍ بَخسٍ في دارِ زَائلةٍ مُضمحلَّةٍ فانِيةٍ؟! وهَلْ هَذا إلاَّ مِن أَعظَم الغَبْنِ؟! وإنَّما يَظهرُ له هَذا الغَبنُ الفَاحشُ يومَ التَّغابُن، إذَا ثَقلَت مَوازينُ المتَّقِين، وخفَّت مَوازينُ المُبطِلين».

وروَى البخاري (٣٦) ومسلم (١٨٧٦) ـ واللَّفظُ لمسلم ـ عَن أَبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وإِيمَانًا بي وتَصْدِيقًا بِرُسُلي فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ أَوْ أُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ الله إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ: لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وريحُهُ مِسْكٌ، والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى المُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ الله أَبَدًا، ولَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ، ولاَ يَجِدُونَ سَعَةً ويَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ الله فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ».

وفَضائلُ الجِهادِ كَثيرةٌ جدًّا، وتطلُّبُها من مَصادرِها سَهلٌ مَعروفٌ، وهوَ بابٌ شَريفٌ من أَبوابِ هَذه الشَّريعةِ الغرَّاءِ، ولذَلكَ كانَ لاَ يَقومُ بهِ إلاَّ ذَوُو الشَّرفِ والسُّؤدَدِ في الدِّين، قالَ ابن القيِّم رحمه الله في «الفوائد» (ص١٠٩):

«فائِدةٌ: قال تَعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت:٦٩)، علَّق سُبحانَه الهِدايةَ بالجِهادِ، فأَكملُ النَّاس هِدايةً أَعظمُهم جِهاداً، وأَفرضُ الجِهادِ جِهادُ النَّفس وجِهادُ الهوَى وجِهادُ الشَّيطانِ وجِهادُ الدُّنيا، فمَن جاهَدَ هَذه الأَربعَةَ في الله هَدَاه اللهُ سُبلَ رِضاه المُوصِلة إلى جَنَّته، ومَن ترَكَ الجِهادَ فاتَه مِن الهدَى بحَسبِ مَا عطَّلَ مِن الجهادِ، قالَ الجُنَيد: والَّذينَ جاهَدوا أَهواءَهم فِينا بالتَّوبةِ لنَهْدِيَنَّهم سُبُلَ الإِخلاَص، ولاَ يَتمكَّن مِن جِهادِ عَدوِّه في الظَّاهر إلاَّ مَن جاهَدَ هَذه الأَعداءَ باطناً، فمَن نُصرَ علَيها نُصِر على عَدوِّه، ومَن نُصِرَتِ علَيه نُصِر علَيه عَدوُّه».

ويَجبُ على كلِّ مُسلم أن يُحدِّث نَفسَه بالجِهادِ، سَواءٌ تيسَّرَ له الآنَ أو أَنظرَه اللهُ إلى مَيسرةٍ؛ لأَنَّ عِزَّ المُسلمِين مَرهونٌ به، مع أنَّ جِنسَ الجِهادِ مُتيسِّرٌ في كلِّ وَقتٍ، فإذَا عجَزَ المُسلِمونَ عن جِهادِ اليدِ فلن يَعجِزوا عن جِهادِ اللِّسانِ كالدَّعوةِ إلى الله أو عن جِهادِ القَلب، قالَ ابن تَيمية كما في «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٦): «والجِهَادُ ـ وإن كَانَ فَرْضاً علَى الكِفَايَةِ ـ فجَمِيعُ المُؤْمِنِينَ يُخَاطَبُونَ بِهِ ابْتِدَاءً، فعَلَيْهِمْ كُلِّهِمْ اعْتِقَاد وُجُوبِهِ والعَزْمُ عَلَى فِعْلِهِ إذَا تَعَيَّنَ، ولهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (مَنْ مَاتَ ولَمْ يَغْزُ ولَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ مَاتَ علَى شُعْبَةٍ نِفَاقٍ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ، فأَخْبَرَ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَهُمَّ بِهِ كَانَ عَلَى شُعْبَةِ نِفَاقٍ، وأَيْضاً فَالجِهَادُ جِنْسٌ تَحْتَهُ أَنْوَاعٌ مُتَعَدِّدَةٌ، ولاَ بُدَّ أَنْ يَجِبَ عَلَى

المُؤْمِنِ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِهِ».

ومن أَحسَن مَا رأيتُ في هَذا العَصر من المؤلَّفاتِ الَّتي لها علاَقةٌ ببَحثِنا هَذا كِتابُ «رِسالة الإرشاد إلى بَيان الحقِّ في حُكم الجِهاد» للشَّيخ أحمد النَّجمي، وكتاب «مُهمَّات في الجِهاد» للشَّيخ عَبدِ العَزيز الرَّيِّس، وكِتاب «مُهمَّات حولَ الجِهادِ» للشَّيخ عبدِ الله أبا حُسين، وثلاَثتُها قدَّمَ لها الشَّيخُ صَالح الفَوزان عُضو هَيئةِ كِبار العُلماءِ بالمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ، وكتاب «القُطوف الجِياد مِن حِكَم وأحكام الجِهاد» للدُّكتور عَبد الرَّزَّاق بن عبد المُحسن البَدر، ومِن الكتُب الشَّاملةِ كتابُ «الجِهادُ: أَنواعُه وأَحكامُه والحدُّ الفاصِلُ بينَه وبينَ الفَوضَى» للدُّكتور حمَد بن إبرَاهيم العُثْمان، جَزاهم اللهُ خَيراً، فلْيَرجع إلَيها مَن شاءَ التَّوسُّع.

قِتالُ الفِتْنَة

تَعريفُ الفِتنةِ:

لغةً: قالَ الأَزهري في «تَهذيب اللُّغة» تحتَ مادَّة (فتن): «جِمَاعُ معنى الفِتنةِ في كلاَم العرَب الابتلاَءُ والامتِحانُ، وأَصلُها مَأخوذٌ مِن قَولِك فَتَنْتُ الفضَّةَ والذَّهب إذا أَذبَتَهما بالنَّار ليَتميَّزَ الرَّديءُ مِن الجيِّدِ، ومِن هَذا قولُ الله ﷻ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الذاريات:١٣)، أي يُحرَقونَ بالنَّار».

وفي الاصطلاَح: وردَت كلِمةُ الفِتنة على عدَّةِ مَعانٍ، منها:

١- الكُفر: ومنه قولُه تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة:٢١٧)، وذَلكَ لأنَّ الآيةَ نزلَت لَمَّا قَتَل بَعضُ المُسلمِين بَعضَ الكفَّار في شَهرٍ حَرامٍ ظنًّا مِنهم بأنَّهم في غيرِ الشَّهرِ الحَرام، فعابَهم الكفَّارُ وقالُوا: إنَّكم تُريقونَ الدَّمَ في الشَّهرِ الحَرام، فرَدَّ اللهُ علَيهم بأنَّ فِتنةَ كُفرِكم أَكبرُ من الدَّم الَّذي يُريقُه غيرُكم في الشَّهرِ الحَرام، والقصَّةُ رَواها أبو يَعلى (١٥٣٤) والطَّبراني (٢/ ١٦٢) وحسَّنَها ابن حجَر في «العُجاب في بَيان الأسباب» (١/ ٥٣٩) وصحَّحَها في «فتح الباري» (١/ ١٥٥) وكذا السُّيوطي في «الدُّر المنثور» (١/ ٦٠٠).

٢- الإضلاَل: ومنه قولُه تَعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ (المائدة:٤١).

٣- الصَّدُّ: ومنه قَولُه تَعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ (الإسراء:٧٣)، ولعلَّه يَرجِع إلى المَعنَى السَّابقِ.

٤- الأَموالُ والأَولادُ: ومنه قَولُه تَعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (التغابن:١٥)، ولعلَّه يَرجِع إلى المَعنَى السَّابِقِ أيضاً؛ فالأَموالُ والأَولادُ فِتنةٌ؛ لأنَّهم قد يَصدُّونَ عن أَسبابِ التَّقوَى كما هوَ مَعلومٌ، قالَ ابن بطَّال في «شرح صَحيح البُخاري» (٢/ ١٥٤): «والمعنَى في ذلكَ أن يَأتيَ مِن أَجلِهم مَا لاَ يَحِلُّ له مِن القَولِ والعمَل».

٥- الاختِبارُ والبلاَءُ: ومنه قولُه تَعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (العنكبوت:٢-٣)، وأَكثرُ أَهْل العِلم يَنصُّونَ على هَذا المعنَى؛ لأنَّه أَصلُه كما مرَّ في التَّعريفِ اللُّغويِّ.

٦- العَذابُ: ومنه قَولُه تَعالى: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ (العنكبوت:١٠).

٧- الحَرقُ بالنَّارِ: ومنه قَولُه تَعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾ (الذاريات:١٣)، وهَذا المعنَى ليسَ هو أَصل كَلمةِ «فَتنَ» من حيثُ اللُّغةِ كما ظنَّ بَعضُهم؛ لأنَّ فَتْنَ الذَّهب بإِحراقِه بالنَّارِ هو لغَرَض استِخلاَص صَحيحِه من زَيفِه، فكانَ إذاً المُرادُ من فَتْنه اختِبارَه من أَجْل ذلكَ، فعادَ معنَى (الفِتنةِ) إلى الاختِبارِ كما سبَقَ، وانظُرْ «فتح الباري» لابن حجَر (١١/ ١٧٦) و«المصباح المُنير» للفيُّومي عِندَ كَلمةِ (فتن).

٨- المَعذِرةُ: ومنه قَولُه تَعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾ (الأنعام:٢٣).

٩- الاختلافُ وتَغيُّرُ الأَحوالِ: ومنه قَولُه تَعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ (التوبة:٤٧)، ومنه قولُه ﷺ: «بَادِرُوا بالأَعْمَالِ فِتَناً كقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً ويُمْسِي كَافِراً، أو يُمْسِي مُؤْمِناً ويُصْبِحُ كَافِراً، يَبِيعُ دِينَه بعَرَضٍ مِن الدُّنْيا» رواه مسلم (١١٨).

١٠- القَتلُ أو القِتالُ: ومنه قولُه تَعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ (النساء:١٠١).

هَذا ملخَّصُ ما أَوردَه إبرَاهيمُ الحربي في «غريب الحديث» (٣/ ٩٣٩) والرَّاغب الأَصفهاني في «المفردات في غَريب القرآن» (ص٣٧١).

وذكَرَ غيرُهما من أَهل العِلم من مَعاني الفِتنةِ: التَّحريف، والإِثْم، والأَذى، والافتِتان، والإِعجَاب، والجُنون وغَيرها، وكَثيرٌ منها داخلٌ تحتَ مَا مرَّ ذِكرُه، ويُنظَر «فتح الباري» لابن حجَر (١١/ ١٧٦)، وقالَ ابن رجبٍ رحمه الله في كِتابِه «فتح الباري» (٣/ ٣٤): «أَصلُ الفِتنةِ: الابتلاءُ والامتِحانُ والاختِبارُ، ويَكونُ تارةً بما يَسوءُ، وتارةً بما يَسرُّ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء:٣٥)، وقالَ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ (الأعراف:١٦٨)، وغلَبَ في العُرفِ استِعمالُ الفِتنةِ في الوُقوع فيمَا يَسوءُ».

والمعنَيانِ الأَخيرَانِ للفِتنةِ ـ أي الاختلافُ والقِتالُ ـ هما مَقصودُ بَحثِنا، لَكن ليسَ كلُّ قِتالٍ هو مُراد بَحثنا، وإنَّما هو القِتالُ العامُّ الَّذي يَشملُ الأُمَّةَ ويَجعلُها فيما بينَها في أمرٍ مَريجٍ، وبهَذا المعنَى فسَّر الحَديثُ الَّذي رَواه

البخاري (٥٢٥) ومسلم (١٤٤) عَن حُذَيفَةَ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ الله ﷺ فِي الفِتْنَةِ كَمَا قَالَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: إِنَّكَ لَجَرِيءٌ! وكَيْفَ قَالَ؟ قَالَ: قُلْتُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ ومَالِهِ ونَفْسِهِ ووَلَدِهِ وجَارِهِ يُكَفِّرُهَا الصِّيَامُ والصَّلاَةُ والصَّدَقَةُ والأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ، فَقَالَ عُمَرُ: لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ، إِنَّمَا أُرِيدُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ البَحْرِ، قَالَ: فَقُلْتُ: مَا لَكَ ولَهَا يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ؟! إِنَّ بَيْنَكَ وبَيْنَهَا بَاباً مُغْلَقاً، قَالَ: أَفَيُكْسَرُ البَابُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لاَ! بَلْ يُكْسَرُ، قَالَ: ذَلِكَ أَحْرَى أَنْ لاَ يُغْلَقَ أَبَداً، قَالَ: فَقُلْنَا لِحُذَيْفَةَ: هَلْ كَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ مَن البَابُ؟ قَالَ: نَعَمْ! كَمَا يَعْلَمُ أَنَّ دُونَ غَدِ اللَّيْلَةَ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ حَدِيثاً لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ، قَالَ: فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ مَن البَابُ؟ فَقُلْنَا لِمَسْرُوقٍ: سَلْهُ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: عُمَرُ».

قَالَ ابن رجب رحمه الله في «فتح الباري» (٣/ ٣٥): «والفِتنةُ نَوعانِ: أَحدُهما: خاصَّةٌ تَختصُّ بالرَّجلِ في نَفسِه، والثَّاني: عامَّةٌ تَعمُّ النَّاسَ، فالفِتنةُ الخاصَّةُ: ابتلاءُ الرَّجل في خاصَّةِ نَفسِه بأَهلِه ومالِه وولَدِه وجارِه، وقد قالَ تَعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (التغابن:١٥)؛ فإنَّ ذَلكَ غَالباً يُلهِي عن طَلب الآخرَةِ والاستِعدادِ لها ويَشغلُ عن ذلكَ، ولَمَّا كانَ النَّبيُّ ﷺ يَخطبُ على المِنبَر، ورأَى الحسنَ والحُسينَ يَمشِيان ويَعثُران وهُما صَغيرانِ، نزَلَ فحَملهما، ثمَّ قالَ: (صدَقَ اللهُ ورَسولُه: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، إِنِّي رَأيتُ هذَين الغلاَمَين يَمشِيان ويَعثرانِ فلَم أَصبر)[1].

(١) رَواه أبو داود (١١٠٩) وابن ماجه (٣٦٠٠) وصحَّحَه الألبانيُّ في تَعليقِه علَيهما.

وقد ذمَّ اللهُ تَعالى مَن أَلهَاه مالُه وولدُه عن ذِكرِه، فقالَ: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ (المنافقون:٩)، فظَهرَ بهَذا أنَّ الإنسانَ يُبتلَى بمالِه وولَدِه وأَهلِه وبجارِه المُجاوِر له، ويفتَتنُ بذلكَ، فتارةً يُلهِيه الاشتِغالُ به عمَّا يَنفعُه في آخِرتِه، وتارةً تَحملُه مَحبَّتُه على أن يَفعلَ لأَجلِه بَعضَ مَا لاَ يُحبُّه اللهُ، وتَارةً يُقصِّر في حقِّه الوَاجبِ علَيه، وتَارةً يَظلمُه ويَأتي إلَيه مَا يَكرهُه اللهُ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، فيسألُ عنه ويُطالبُ به، فإذَا حصَلَ للإنسانِ شيءٌ مِن هَذه الفتنِ الخاصَّةِ، ثمَّ صلَّى أو صامَ أو تصدَّقَ أو أمَرَ بمَعروفٍ أو نهَى عن مُنكرٍ كانَ ذلكَ كفَّارةً له، وإذَا كانَ الإنسانُ تَسوؤُه سيِّئتُه، ويَعملُ لأَجلِها عملاً صالحاً كانَ ذلكَ دَليلاً على إيمانِه...

وأَمَّا الفِتنُ العامَّةُ: فهيَ الَّتي تَموجُ مَوجَ البَحْر وتَضطربُ ويَتبعُ بَعضُها بَعضاً كأَمْواج البَحر، فكانَ أَوَّلَها فِتنةُ قَتْل عُثمانَ رضي الله عنه، **ومَا نَشأَ مِنها مِن افتِراقِ قُلوبِ المُسلمِين، وتَشعُّب أَهوائِهم، وتكفير بَعضِهم بَعضاً، وسَفكِ بَعضِهم دِماءَ بَعضٍ**، وكانَ البابَ المُغلَق الَّذي بينَ النَّاس وبينَ الفِتنِ عُمرُ رضي الله عنه، وكان قتلُ عُمر كَسراً لذلكَ البابِ، فلذَلكَ لم يُغلَق ذلكَ البابُ بَعدَه أبداً».

إذاً، فالمُرادُ من الفِتنةِ هُنا هو ما يَكونُ بينَ المُسلمِين من شِجارٍ عامٍّ واقتِتالٍ، وقد أَوضحَه ابنُ حجَر في «الفتح» (١٣/ ٣١) فقالَ: «والمُرادُ بالفِتنةِ مَا يَنشأُ عن الاختلاَفِ في طلَبِ المُلك حيثُ لاَ يُعلَم المُحقُّ مِن المُبطِل».

ومَقصودُه من عدَم العِلم بالمُحقِّ من المُبطِل، أي عندَ عامَّة النَّاس، وأمَّا العُلماءُ والمُوَفَّقون ممَّن دونَهم فيَعلَمونَ ذَلكَ كما سيَأتي إن شاءَ اللهُ، فتُسمَّى فِتنةً بالنَّظرِ إلى اشتِباهِها وإلى أنَّها سببٌ في وُقوعِ الاختلاَفِ العامِّ بينَ الأُمَّة، ومِن الله يُستمَدُّ العَونُ والتَّوفيقُ.